March 2019
Vol 1 Issue 1

Literature of Trips and the Image of the Desert in the Eyes of the traveler

Researcher Salihat Hamidu
s.hamidou0303@gmail.com

Issn print: 2710-3005. Issn online: 2706 – 8455, Impact Factor: 1.705, Orcid: 000-0003-4452-9929, DOI, PP 80-93.

Abstract: God Almighty has distinguished man with reason, for he is always thinking and reflecting on what is around him and from the issues that have occupied his mind since the ancient desert, that vast and strange space hidden with hidden and strange, man lived in the depth of the desert discovering its folds at all times, and it takes a trace of those who passed through a decade of time, So the various caravan trips took place, either to seek knowledge, trade or exploration, and discover their wealth, from gold, oil, etc., as was at one time a crossing for the pilgrims to perform the obligatory prayer, and the goal may be to mitigate worries, and this is what the literature of the trip revealed, and their writings have been proven by that I maintained this human cultural balance of wealth and others. We will try in this work to follow the literature of the journey in the heart of the desert, because it was the window through which we are overlooked by the hidden world A specific time stage, with the follow -up of the images and facts that these travelers drew and discovered for this terrible compassionate space through their writings, which is known as the literature of the trip.

Keywords: Desert, journey, adventurous man, literature.

أدب الرحلات و صورة الصحراء في أعين الرحالة

ملخص الدراسة: ميّز الله سبحانه تعالى الإنسان بالعقل، فهو دائم التفكير والتدبّر فيما حوله ومن القضايا التي شغلت باله منذ القديم الصحراء، ذلك الفضاء الشاسع والغريب المكتنز بالخبايا والغرائبية، عاش الإنسان في عمق الصحراء يكتشف ثناياها في كل حين، ويقتص أثر من مرّ بها لعقد من الزّمن، فقامت فيها رحلات القوافل المختلفة، إما لطلب العلم أو للتجارة أو الاستكشاف .. واكتشاف ثرواتها، من ذهب وبترول وغيرها، كما كانت في وقت من الأوقات معبرا للحجيج لأداء الفريضة وقد يكون الهدف التخفيف من الهموم، وهذا ما كشف عنه أدب الرحلة، وأثبتته كتاباتهم التي حافظت على هذا الرصيد الثقافي الإنسانيّ الثرّ وغيره سنحاول في هذا العمل أن نتتبّع أدب الرحلة في قلب الصحراء، لأنه كان النافذة التي نُطلّ عبرها على خبايا هذا العالم المجهول (الصحراء) الذي مازال إلى يومنا هذا يُخفي الكثير من الأسرار، ونعرّج على أهم رحلات الحج في مرحلة زمنية محددة، مع تتبع الصور والحقائق التي رسمها واكتشفها هؤلاء الرحالة لهذا الفضاء الرحيب الرهيب وذلك من خلال كتاباتهم وهو ما يعرف بأدب الرحلة.

الكلمات المفتاحية: الصحراء، الرحلة، الانسان المغامر، الأدب.

"السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير"

الجانب النظري:

عُرف الانسان بحبّ التعلّم والاكتشاف، وما كان ليحقّق هدفه المنشود وهو قابع بمكانه، فكانت الرّحلة هي السبيل الأنجع لإشباع فضوله أو لتحقيق مآرب أخرى، كما أنّ حياة الانسان رحلة من بدايتها إلى نهايتها فالرحلة الأولى كانت لسيدنا آدم و أمنا حواء من الجنة إلى الأرض ثم رحلة الانسان من بطن أمّه إلى هذا العالم الجديد، ثم رحلات متعددة من سنّ لآخر(رضيع، صبي، شاب، كهل، شيخ) ومن أهم الرحلات الاسراء و المعراج رحلة سيدنا محمد- عليه الصلاة و السلام- ثم رحلة الموت التي تقود الانسان إلى عالم آخر، فالرحلة قدر الإنسان.

معنى الرّحلة لغة: رحل، رحلا ورحيلا وترحالا عن المكان: تركه - إلى المكان : انتقل - البعير : شُدّ على ظهره الرحْل ركِبه – البلاد: طافها وتنقّل فيها. (البستاني، 1989، صفحة 236) أما في القرآن الكريم جاء ذكر الرحلة و ذلك في سورة قريش الآيات من(1-4) " إِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) ويُقصد بها الرحلة التّجارية، كما نجد رحلة سيدنا موسى - عليه السلام- مع الخضر- عليه السلام- فمغامرات الرحلة عرفها الانسان منذ القديم ومازالت إلى يومنا هذا، لكن تغيرت وسائلها ووجهاتها وأهدافها وحتى الرؤيا، وأكثر المناطق التي استهوت الانسان الصحراء، خاصة المناطق المجهولة منها، قبل التوغل أكثر في الموضوع يجدر بنا معرفة مفهوم الصحراء.

مفهوم الصّحراء: هي " الفضاء، الواسع لا نبات فيه، صحارَى و صحارٍ وصحاريَ وصحْراوات " (البستاني، 1989، صفحة 395) . وهي منطقة جغرافية قاحلة تتميّز بندرة الأمطار فمناخها صحراويّ، والأمطار قليلة بل تنعدم في بعض المناطق، أما بالنسبة للجغرافيّ: فهي منطقة تسودها المناظر الطبيعية وأثر الانسان فيها قليل جدا.(فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 1)

وأشهر الصحاري في العالم

الصحراء الكبرى : شمال إفريقيا.

الصحراء الأسترالية.

صحراء أنتاركتيكا : هي صحراء جليدية .

صحراء المملكة العربية السعودية : تحتوي على ثلاث صحاري كبيرة هي: النفوذ في الشمال، الربع الخالي في الجنوب، وصحراء الدهناء في الشرق" . وغيرها من الصحاري . ورغم كل هذه المخاطر قصَدها الكثير من لرحّالة فنقلوا انطباعاتهم واكتشافاتهم في كتابات عُرفت بأدب الرحلات.

مفهوم أدب الرّحلات : littérature " de voyages " بالفرنسية و Travel littératur " بالإنجليزية، هو أدب يسمح لنا بالاطلاع على المكان والتاريـخ والانسان في مختلف المناطق، ويوفر مجالا تتداخل فيه الرواية التاريخية مع السرد لتقديم مفهوم للحضارة التي عاشتها الانسانية والأطوار، فالرحالة يعيش مع الناس ثم يصوّر كل ما حدث له من مشاهداته الحيّة (رفو، 2019) فيستمتع ويستفيد كل من يطّلع عليها، مما يجعلها مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 8) .

و" أيضا يعرّف أدب الرحلة بأنه كافة المؤلفات والمدوّنات، والمخطوطات التي وصلتنا من

العصور الماضية (مفهوم أدب الرحلة، 2019) فالمعلومات التي يقدّمها الرحّالة مستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 77) وما يزيد من قيمة أدب الرحلة قالبه فهو يتّخذ من الوصف والأسلوب القصصي السلس وسيلة لتحقيق المتعة الذهنية (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 13)

لقد اختلفت وجهة الرحّالة فمنهم من اتّجه نحو الشمال ومنهم من اتجه نحو الجنوب أو الشرق في عوالم مجهولة لم تُكتَشف بعد، وكان للصحراء في ذلك حصة الأسد كما كانت الرحلة في البداية بوسائل بدائية " الانسان قضى عدّة قرون في استخدام الدواب لنقل الأفراد والأشياء، وأنّه استغرق أيضا زمنا طويلا في تمهيد الطرق وتعبيده للسّفر بالدّواب والعربات التي تجرّها الأحصنة أو الحمير، هذا بينما تمّ اختراع القاطرة والباخرة والسيارة، والطائرة، بل مركبة الفضاء تمّ ذلك كله في قرن واحد (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 34)

منه نطرح السؤال التالي : ما الحقائق والانطباعات والاكتشافات و الحقائق التي أظهرها أدب الرّحلة حول الصّحراء ؟

الجانب التطبيقي

بداية، الجدير بالذكر أنّ جنسيّات الرحّالة اختلفت منذ القديم، منهم العرب وغيرهم كما تباينت وجهاتهم وأهدافهم كالتجارة، التي عُرفت عند العرب منذ الجاهلية، كما أنّ العرب أهل بداوة يتتبعون منابت الكلأ وموارد الماء، لتأتي بعدها مرحلة الفتوحات الاسلامية التي فتحت الباب - في هذا المجال- على مصراعيه للتجّار، وكذا الاستكشاف أو المغامرة .

فهل نجح الرحّالة في الوصول إلى أعماق الصحراء و خاصة الأجانب منهم ؟

الرحلات العربية قديما وحديثا :

كانت انطلاقة أدب الرحلة عند العرب في القرن الثالث الهجري مع " هشام الكلبي، الذي صنّف الكثير من المؤلفات، منها كتاب الأقاليم- والبلدان الكبير، والبلدان الصغير والأصمعي وألّف: رسالة في صفة الأرض والسماء والنباتات وغيرهم.. أما القرن الرابع الهجريّ فقد كثرت الرحلات من أهمّ الرحّالة المسعوديّ ألّف مروج الذهب ومعادن الجوهر.. و من أشهر رحّالة القرن الخامس الهجريّ البيرونيّ . وغيرهم من الرحّالة إلى أن تدهورت الأوضاع السياسية والاقتصادية، فقلّت الرحلات (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 150)

وبفضل هذه الرحلات تمكّن الرحالة العرب وغيرهم من الوصول إلى مناطق لم تُكتشف من قبل. ولا نتجاوز ذكر الرحلات دون الوقوف عند أشهر الرحالة إنّه ابن بطوطة صاحب كتاب " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" فهي ذات قيمة أدبية.

رحلة ابن بطوطة : (703هـ - 779هـ) أعظم الرحّالة المسلمين على الإطلاق مغربي، له رحلات ثلاث، الرحلة الأولى إلى مكة للحج، دامت ثمانية وعشرين عاما جاب مختلف الأمصار، إذ كانت انطلاقته من طنجة سنة 1322 هـ إلى إفريقيا الشمالية .. مراكش، الجزائر تونس، طرابلس، مصر، فلسطين، سورية، فالحجاز ثم أتمّ رحلته بعد اتمام الحجّ نحو فارس، والعراق والأناضول، وعاد مرة أخرى إلى مكة ثم رحل إلى اليمن وعمان والبحرين.. وجاوز إفريقية الشمالية، وعاد مرة أخرى إلى مكة ومنها قصد مصر ثم الأناضول ثم شبه جزيرة القرم ثم أبحر إلى القسطنطينية. وانطلق إلى الهند عابرا بخارى وخوارزم وخراسان وكردستان وأفغانستان وقصد الصين ومنها إلى بلاد العجم ففارس فالعراق فسوريا فمكة للمرة

الرابعة وعاد إلى فاس سنة 750هـ ثم اسبانية وإفريقية ورجع إلى فاس ودوّن رحلاته، فقد وفّر له سلطان مراكش الظروف وكتب له " ابن جزيّ". أنهى تدوينه سنة 1356م أمّا هو فقد توفي سنة 1377م. ينظر: (الله، 2005، الصفحات 58-61).

و تعدّ رحلته مصدرا كبيرا من مصادر التاريخ والجغرافية في القرون الوسطى(جورج غريب ص65) إذ احتوى معلومات عن جهات إفريقية كانت لاتزال مجهولة حتى ذلك الوقت . هذا عن بعض الرحلات القديمة، أمّا رحلات القرن الثامن عشر في الجزائر فمن أشهر وأقدم الرحّالة " ابن حمدوش"(1107هـ) الذي عاصر عهد الباشوات، كما ذكر في رحلته بعض الثورات الداخلية في الجزائر (الله، 2005، صفحة 223) وأهم رحلة بالنسبة للمسلم هي الرحلة الحجازية، تلك الأمنية التي حقّقها بعض الرحالة متحملين كل المشاق في سبيلها.

رحلات الحج: (الرحلة الدينية) أو ما يعرف بالرحلة الحجازية ، عرف العرب نوعا آخر من الرحلات دوافعه روحية ونقصد به رحلة الحجّ أو العمرة، وما يتبعها من زيارات لمواقع أخرى كزيارة قبر الرسول (ص) بالمدينة المنورة وأضرحة الأنبياء و الصالحين، و" هي رحلة قديمة منذ أيام إبراهيم الخليل- عليه السلام- و بعد ظهور الاسلام فُرضت مرّة في العمر للقادر (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 27).

يصف ابن بطوطة ركب الحجاج الذي رحل معه قائلا : " وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مر والمراد مر الظهران، في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم لا يحصى عددهم، تموج بهم الأرض موجا(ابن بطوطة.....والملاحظ أنّ هذه الشعوب في الثقافة والعقيدة. وقد تتواصل رحلة الحاج إلى مناطق أخربوأشهر من مثلوا هذه الرحلة : العبدري وابن جبير والوزيـع الغسانيّ وابن بطوطة والحسين الورتلانيّ وغيرهم (طعيبة،2017،صفحة13) وعن رحلة الحج كتب محمد محمود الصياد " أنّ الحجّاج، كانوا يتجمعون في قوافل تبدأ صغيرة ثمّ تنموا كلّما تقدّم بها الطّريق، بما ينضمّ إليها من وفود، حتى يصبح في النهاية للعراق حجيجه وللشام حجيجه، و لإفريقيا حجاجها، و تسير القافلة في ألفة و نظام.. يحميها جنود الحكّام و يرحّب بها سكّان المدن و القرى في معظم الأحيان، ويزداد الترحيب كلّما زاد في القافلة عدد العلماء ورجال الدّين " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 80) ومنه تظهر فوائد هذه الرحلات، الدينية و العلمية على حدّ سواء.

- **الرحّالة الغرب :**

لقد اهتم الرحّالة الغربيون بالصّحراء، وتحدوا كلّ الصعاب والمشاق لقطعها واكتشافها، لكن الملاحظ أنّ البعض منهم لقي حتفه قبل الوصول إليها والبعض الآخر أُسِر والبعض نجح ونال حظا وافرا من الشهرة . أبرز رحلة استكشافية رحلة " كريستوف كولومبس " سنة 1492م، وقد تكون الرحلة بهدف المغامرة كرحلة السائح الانجليزيّ " شو" في القرن السابع عشر، بالإضافة إلى رحلة " ماركوبولو" في القرن الثالث عشر اخترق خلالها القارة الآسيوية من الغرب إلى الشرق حتى اليابان (العربي، 1986، صفحة 06)، وتلتها رحلات أخرى في القرون الموالية من أمثلتها رحلة " ثيسجر الملقب مبارك بن لندن " وقد عنون كتابه بـ " الرمال العربية " فهو من أشهر المستكشفين وكتّاب السّفر في العالم بين عامي 1945 و1950 قام برحلتين طويلتين وستّ رحلات قصيرة عبر صحراء الربع الخالي. الصحراء الجزائرية في أعين الرحّالة:(قوافل الحبر).

قصد الصحراء الجزائرية، الكثير من الرحّالة، كغيرها من الصحاري، وقد نقلوا كل ما يميّز الجزائر من شتى المجالات فهاهو رحّالة انجليزي R.V.C.Bodelley يقول عن الصحراء: " إنّني رأيت معظم العالم، التقيت آلاف النساء والرجال، لكنني لم أجد الراحة و الاطمئنان سوى في هذه الصحراء العظيمة " (عبد الله الركيبي ، 2009، صفحة 275) كما وصف الرحّالة الفرنسيون الصّحراء الجزائرية أوصافا مختلفة، فهذا " ريني بوتيي" René Potier يقول مصحّحا بعض الاعتقادات عن الصحراء: ".. فالصحراء ليست تلك المنطقة المتصحّرة التي تستحيل فيها الحياة إلا على البدو والرحل، وهي ليست بلادا مجدبة ولكنها بلاد جافة بحيث أنه يكفي أن تمطر غيمة على منطقة انعدمت بها النباتات لتزهر الأرض .. في خلال أيام معدودات وبرغم الرمال وزوابعها فإن الصحراء ليست هي تلك الصورة التي في أذهان الأوروبيين .. على أنّ الصحراء رقعة ممتدّة من الرّمال وبعض النخيل" ثم يبيّن مختلف المظاهر الموجودة بها قائلا : " الجبل في الشمال والوسط ودعامة الهضاب العليا والهقار والطاسيلي والحمادة، سهول صخرية والرق، رقعة منخفضة .. تتوزع فيها الصخور، ثم العرق تراكم للغبار ومواد أخرى.. ثم أوقفتها حواجز لتشكل كثبانا (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 05)، فمن خلال ما جاء على لسان ريني نلمس تصحيحا لبعض المواقف والانطباعات الحسنة حول الصحراء والدليل على ذلك بقاء بعض الرحّالة لعدة سنوات بها . كما أنّ الرّحالة يتأثّر باعتقاداته وأفكاره المسبقة، فالمتفحّص لكتابات الرحّالة حول المنطقة الواحدة في نفس الحقبة يجد اختلافا بل تناقضا بين ما توصّل إليه كلاهما أمّا الرحالة ألفريد بارودون Alfred Baraudon فالصحراء بالنسبة له : " هي ذلك الإقليم الشاسع الممتدّ من الجزائر و ليبيا إلى السودان ومن الأطلنطي إلى مصر، ربع إفريقيا " ثمّ يحدّد الصحراء الجزائرية جغرافيا بقوله " هي تلك القطعة الممتدة من توات وسهول تادميت وتينقبرت من الجنوب، في الخلف تقف جبال الأهقار .. بقممها المتوّجة بالثلوج، موطن الطوارق . في الصحراء نجد كل شيء؛ سهول شاسعة رتيبة كتلك التي تمتدّ من بسكرة إلى ورقلة هضاب مفصولة بوديان كشبكة الميزاب وكثبان رملية موحشة متعذر عبورها " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 06).

بهذا يكون ألفريد قد حدّد الصحراء عموما ثم الصحراء الجزائرية مُبديًا موقفه منها فهي موحشة فيتعذّر التوغل فيها أي أنها متمنّعة على الغريب، لهذا لم تتمكّن منها فرنسا بسهولة. ومن جانب آخر تحدّث الرّحالة عن سكان الصحراء الجزائرية وهما مجموعتان عرقيتان العرب والبربر، ينقسم البربر إلى مجموعتين؛ الأولى رضخت للسيطرة العربية، أما الثانية فهي أكثر جرأة نقصد التوارق (فهيم، أدب الرحلات، 1989، الصفحات 07-08). والمثير للدهشة والاستغراب هو المشاهد الطبيعية للصحراء التي رسخت في أذهان الرحّالة، فوثّقوها في كتاباتهم و نقلوها نقلا حيّا، كمشهد غروب الشمس وسير القوافل والخيام والنخيل وغيرها من المشاهد التي لم يألفوها في بيئتهم

النخلة : النخلة رمز الشموخ عند الصحراويّ، فهي باسقة، سحرت بجمالها الشعراء والرحّالة كما أنّها عربية الهويّة بامتياز وعنوان التمسك بالحياة، بل رمز الحياة يقول عنها الرحّالة "ألفريد بارودون" آه النخلة ! إنّها ملكة الصّحراء؛ تغذي بثمارها كل أقوام وتحدّد من بعيد منابع الماء للقوافل الظمأى والأرض تحت ظلالها تحافظ على رطوبتها، فتُنبت

الأزهار والخضر، تقوّس ساقها لقبلا الرّيح القويّة ولا تنكسر، تأوي تحت مظلتها المشروعة الكلّ وترسم على الأرض ظلالا عند الغروب تجدها أينما حللت في خطّ أسود .. كما حارس متقدّم بمداخل الواحات .. إنّها النّخلة العظيمة، ذات الجمال الذي يتعذر وصفه، الهيفاء، الملكية، الفريدة، ترفع رأسها في جلال وشموخ نحو السماء " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 22) لقد تتبّع الرحّالة وصف النخلة من شتى جوانبها مُبديا إعجابه بها، مفصّلا دورها الفعّال في الصحراء لهذا ارتبطت حياة العربيّ الصحراويّ بها، فهي من النّعم التي حبانا الله بها .

القافلة: لقد شدّ منظر القوافل أنظار الرحّالة، فكتبوا عنها الكثير أثناء رحلاتهم، يقول دي بواروجي يقدّم مشهد القبيلة وهي راحلة للناظر مشهدا مدهشا... يتقدّم المسيرة رجال على الخيول والبنادق تتدلّى بمحاذات السّروج، وهم يوجّهون الصفّ الطويل للجمال التي تسير ببطء، ثم تأتي قطعان الماعز والغنم تتبعها بعض الأبقار الهزيلة، الأحمرة الحاملة لأثقال فوق طاقتها.. على أن يقول تقطع النساء الشابات أو العجائز الطّريق على الأقدام . فقط اللواتي ينتمين إلى عائلات بعض العرب الأثرياء يسافرن على ظهور الجمال مسترخيات في هودج يطلق عليه اسم الباصور . وعلى الجانبين وفي مؤخّرة القافلة يسير الفرسان الذين يسهرون على السير الحسن والنظام العام للقافلة، ويساعدون المتأخّرين على اللّحاق بالرّكب.. وبمجيء الليل تخيّم القافلة في مكانها لتنطلق عند الفجر" (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 21)لقد صوّر الرحّلة القافلة بدقة متناهية تنم عن الملاحظة الدقيقة الميدانية، وبنظرة ثانية يصوّر الرحّالة فيليسيان سامسور القافلة ثعبانا عملاقا إذ يقول

" على رمال الصحراء، تتهادى القافلة بطيئة... وسط سلسلة من الأضواء الشرقية ... ذبذبات النور على الرمل ...إرهاق ومعاناة الجمال.. وعلى أرداف الخيول العريضة اللامعة.. في تتابع جميل، لصور متعدّدة الألوان ... هكذا تتقدّم القافلة، مع ظلالها الطويلة والقصيرة حسب تغيّر الوقت. المشهد متباين لهذا الثعبان العملاق المكوّن من الرّجال، الخيول والجمال" (فهيم، أدب الرحلات، 1989، الصفحات 26-27-28) نظرة شاعرية مزج فيها الرحّالة بين المنظر الحقيقي للقافلة و قد غذاه بخياله الفنيّ. تعتمد القافلة اعتمادا كبيرا على الجمل، فكيف صوّره الرحّالة ؟

الجمل : إذا ذكرنا الصحراء ذُكر الجمل فهو سفينة الصحراء- كما يُقال – ومحور حياة البدويّ، ففي هذا الموضوع يقول فيال Vial " إنّ الحياة البدوية ما كان لها لتكون لولا الجمل الذي بواسطته استطاعت بعض القبائل الصحراوية التأقلم والعيش وسط الصحراء وظروفها الطبيعية القاسية، ومنذ القرن الثاني للميلاد، عُدّ إدخال الجمل حدثا رئيسا في تاريـخ الصحراء، إذ بواسطته بدأت بعض الشعوب الرعوية تتوغّل شيئا فشيئا في عمق الصّحراء ... فهو

يحمل وينقل الماء، المواد الغذائية، يوفّر للبدو الحليب والوبر، وللأغنياء منهم اللحم والجلد " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 42) . وعليه كان الجمل هو المحفّز لبقاء العربيّ بالصحراء فقد اقتسم مع الانسان تلك المشاق، فهو عنوان الصبر

الخيمة: الخيمة عنوان البداوة والبساطة، ورد ذكرها في كتابات الرحالة بأوصاف دقيقة تنم عن اهتمام بالمكان، يقول فرومونتين : خيام حمراء مخطّطة بالأسود، مثبتة بعدد من العكاكيز، وممسوكة بالأرض بحبال وأوتاد، تراكمت بالدّاخل .. أدوات المطبخ، وأثاث البيت، وعدّة الحرب .. الرّحى الحجريّة، المهراس .. الصفحة .. الغربال الكسكاس، جفان الحلفاء .. بردعات الجمال زرابي الخيام، النول لنسج الصوف .. إلخ ووسط هذه الفوضى صندوق أو صندوقان يحويان إضافة إلى حليّ المرأة، الأشياء الثمينة الأخرى . وفي الخارج، أرضية مطروقة .. مليئة بالأوساخ، مغطاة ببقايا الأشياء القديمة وعظام الحيوانات، إضافة إلى مكان يكسوه السواد الكوانين المحفورة في الأرض، والمتكوّنة من ثلاث أحجار تشكّل موقدا؛ أكداس من العلّيق والأشواك اليابسة، وقرب سوداء معلّقة بثلاث أوتاد على شكل هرم .. هذا هو المنزل المتنقّل الذي يقضي البدويّ الصحراويّ فيه نصف عمره " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 25) لم يصوّر الرحّالة الخيمة بل رسم لنا حياة العربيّ البدويّ بدقّة متناهية .

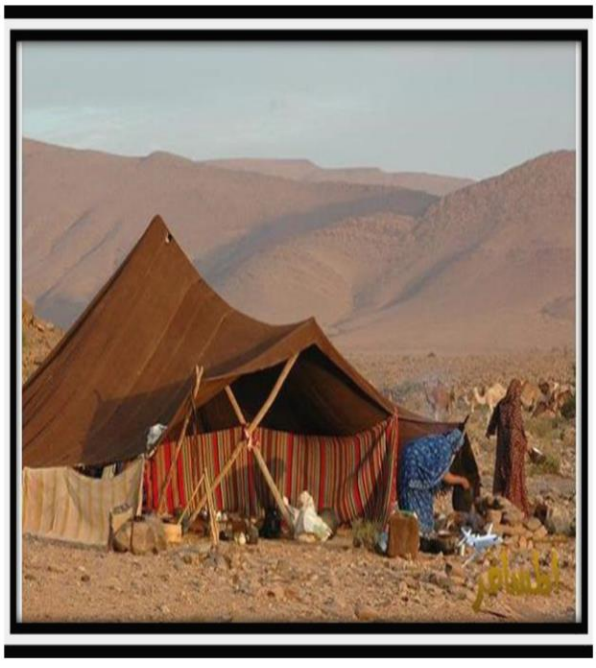

وصف غروب الشمس: الرحّالة أمام غروب الشمس موقف المنبهر بهذه الظاهرة الفريدة من نوعها، فقد أفسحت الصحراء المجال واسعا لهذا الغروب كما منحت لكلّ متابع متعة، فهي لوحة يعجز اللسان عن وصفها، صورة سحرت الألباب، فقال عنها فليسيان " .. فجأة يتوهج الشرق ... يشتعل كما جمرة أسطورية ... يلتهب كل شيء فجأة، المنازل، النخيل، الأسوار في مشهد من الألوان والأحلام، فتبدو الصحراء وكأنّها صورة ثابتة في أنوار ساحرة ... وبسرعة يغيب الكل وسط ظل لامع " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، الصفحات 20-21)

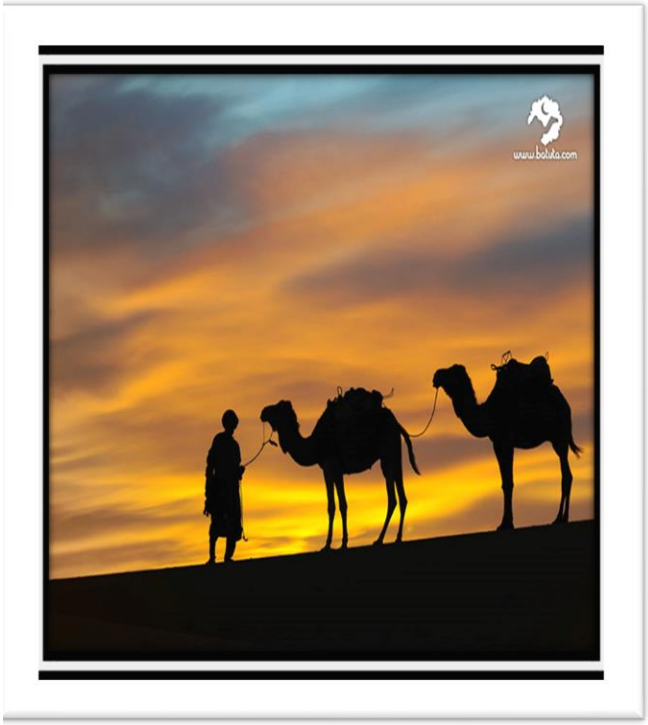

البداوة: نمط حياة سكان الصحراء عموما البداوة، ولفظة بدويّ، راحل أوNomade بالفرنسية أصلها يونانيّ nenein أي أرعى Faire paitre يعتبر البدويّ العربيّ نموذجا للرعاة وليس القناصين الصيادين .. " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 40)، كما أنّ البدويّ يقتصر على الضروريّ في حياته، يتّخذ البيوت من الشعر والوبر، أو من الشّجر، أو من الطّين والحجر" ومن جهة أخرى صنّف ابن خلدون البدو إلى ثلاث أصناف :

- من كان منهم في الزراعة وتربية النحل....هؤلاء سكان المدر، ضواحي المدن والقرى والجبال، وهم البرابرة وغير العرب .
- من كان معاشه من السائمة، مثل الغنم والبقر، فهم ضعن سعيا وراء الكلأ والماء، فالتقلّب في الأرض أصلح لهم.
- من كان معاشه في الإبل، فهم أكثر ضعنا.. وهم بدو العرب و بدوالبربر (خلدون، 2009، الصفحات 150-158-440)

الحياة الاجتماعية: بنظرة فاحصة لما دوّن الرحّالة عن المجتمع العربيّ البدويّ الصحراويّ، ندرك أنّ مهمتهم لم تكن سهلة ذلك أنّ التوغل في الصحراء العربية(وغيرها) مهمّة تكاد تكون مستحيلة وذلك راجع لطابعها ومزاج سكانها، وهذا ما يعلمه الرحالة الغربيون، فقد فشل الكثير منهم في الوصول

إلى مبتغاهم وهلك الكثير، لكن فئة منهم تشبّثت بأمل
الوصول إلى أعماق الصحراء وقد أثبت الواقع نجاحهم- خاصة من كانت نواياهم سليمة بعيدة عن الجوسسة والتبشير، فسكان الصحراء رغم بساطتهم أذكياء، وما على الرحّالة قبل الولوج إلى الصحراء إلا اتّخاذ التدابير اللازمة لتلك المهمة . فما الحلول والحيل التي سهّلت- نوعا ما- على الرحّالة مهمّتهم ؟ وما الحقائق التي توصّلوا إليها ؟
اختلفت الحيل و الطرق من رحّالة لآخر، منهم من كان يتنكّر ويُخفي شخصيته ودينه، ومنهم من كان يُقيم في بلد عربيّ ويتعلّم اللغة العربية ويتعوّد على عادات العرب ثم يقوم بمهمتّه . وفعلا نجح البعض- رغم المشقة - في مهمتهم، ذلك أنّ البدويّ لمس صدق نوايا البعض الرحّالة، بل وجدوا مساعدات من أهل الصحراء حتى التوارق، من هنا استطاعوا الكشف عن حقيقة حياة البدويّ الاجتماعية وغيرها، من أهم المظاهر التي لمسها الرحالة و شدّت انتباهه
الكرم : إذا ذُكر العربيّ ذُكر الكرم معه، فهي ميزة عرفت منذ العصر الجاهلي، كما عرف بها سكان الصحراء، و هي ميزة غريبة عن الرحّالة لأنها لا تُميّز مجتمعه الماديّ بينما المسلم يقدّم مصلحة الآخر قبل نفسه، يقول كلاماجرون Clamageran عن الكرم : " كرمهم يمتاز بنوع من العظمة و الفخامة، لا يمكن إلا أن يؤثّر في الغريب ... حتى ولو كان بسيطا ... فإن العظمة تكمن في سلوكاتهم، في حركاتهم و ملامح وجوههم المعبّرة عن الوقار و الودّ و الاستئناس .. إنّهم يتمتّعون إلى درجة عالية بفنّ التعبير عن أحاسيس عميقة بطرق بسيطة جدا " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، الصفحات 91-92)، أبدى الرحّالة اعجابه الشديد بكرم البدو فقد وجدوا المساعدة و التفهم . أما الجنرال دي براي فيدلي بشهادة في كتابه " مذكراتي " فقد وقع في مأزق فطلب المساعدة من عربيّ الذي استجاب، فساعده بالمال واللحم لجيشه الجريح البالغ أكثر من ألفي رجل، هذا الموقف الذي هزّ القائد فدوّنه (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 93)

حسن الضيافة: يتسابق سكان الصحراء في أداء واجب الضيافة؛ فقيرهم قبل غنيهم، وقد دوّن الرحّالة هذه الحكايات يقول فرانك إليزا: " لا شكّ أنّ نقص الحضارة قد حرمتهم من ميزات عدّة غير أنّهم يتمتّعون بفضائل استثنائية جدّا " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 95).

وتتكون الضيفة (القِرى)عادة من كبش أو أكثر مشويين مع الرغيف، و الفواكه المجفّفة والكسكس مع المشروبات؛ الماء، الحليب، واللبن.
يقول فرومنتان بأنّ الضيافة توصية إلاهية بعابر السبيل- خاصة في بيئة صحراوية- فالمبعث ديني (فهيم،أدب،الرحلات،1989،صفحة97) كما أنّ العربيّ يخصّص خيما للضيوف بخدمها، تشيّد من طرف أغنياء الحيّ.هذا موقف العربيّ في حالة السلم فما موقفه من العدوّ ؟

التمرس الحربي: رغم السجايا التي عرف بها العربيّ، عرف كذلك بحقده على من يُهينه، فالثأر هو السبيل لاسترجاع كرامته. يورد الرحّالة أوجين دوماس Eugene,Daumas قصة الرجل التارقي الذي ثأر لوالده، فقد أقسم أن يملأ بطن القاتل حجرا وهو حيّ، و قد تمكّن من ذلك (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 105) . إنّ هذه الصّفات القتالية نتيجة طبيعية

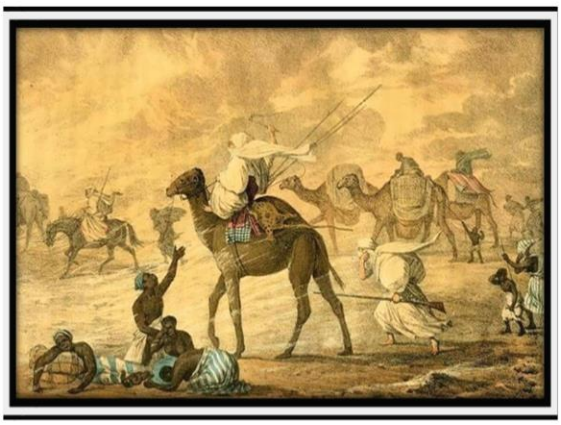

للظروف التي عاشها الجزائريّ منذ القديم، فأرضه و بلاده دائما منتهكة لموقعها الاستراتيجيّ و خيراتها، فكان من الواجب الذود عن الحياض، و تعلّم فنون القتال، خاصة سكان المناطق الجبلية والصحراوية – و هذا ما أكّده ابن خلدون في مقدمته- فهو دائما في حالة استنفار، كما أنّ شجاعة العربيّ الجزائريّ يشهد لها العدوّ قبل الصديق .

السحر : يعتمد السحر على طقوس ذات طابع روحيّ أو سحريّ، كانت تؤديها المجتمعات الصحراوية -وغيرها - لاستعادة التوازن النفسي في اعتقادهم- و قد لاحظ الرحالة هذه الظواهر في الجزائر منها قوى الجنّ. ومن المعتقدات السائدة لدى التارقي عدم النوم تحت سقف أبدا، خوفا من سيطرة الجنّ. (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 108)،

لهذا كان أفراد المجتمع الجزائريّ الصحراويّ يحموا أنفسهم بوصفات سحرية لإبعاد الخطر أو جلب الحظّ فيستعينوا بالتمائم، كما يفضّل الرحّالة في الأشكال المختلفة للحروز والطلاسم، وكذا يد فاطمة والسمكة والقرن والجمجمة لطرد الشرّ والعين – ومازالت تعتمد حتى يومنا هذا – (فهيم، أدب الرحلات، 1989، الصفحات 107-110). هذا عن المجال الاجتماعي، كما سجل الرحالة المظاهر الثقافية لسكان الصحراء، منها:

الموسيقى: لقد ابتكر العرب الحداء المساعد للإبل على قطع المسافات الطويلة، و المصاحب للمهن الشاقة للترويـح عن النفس . فأصل الموسيقى عربيّ، أما في الجزائر فتختلف و تتنوع الموسيقى من منطقة لأخرى، و قد عبّر الرحّالة عن عذوبتها و بساطتها إذ يقول شانوني Chanony عن موسيقى الجزائر الملاحظ أن الموسيقى الصحراوية قد ارتبطت بنمط حياة هذا المجتمع .

الرقص: هو لغة الجسد و الحركة، و من أهم الفنون الشعبية الفلكلورية، يقول عز الدين اسماعيل الشعوب الافريقية هي أول شعوب العالم معرفة بفنون الرقص و الموسيقى .. " تقول الكاتبة بولين نوار فونتان Pauline, NoireFontaine "غير أنّ العرب لا يحبّون ممارسة الرقص؛ العرب يحبّون الرقص ولكنّهم لا يرقصون فيجيؤون براقصين للرقص أمامهم و يدفعون لهم ثمن رقصاتهم، و ذلك أنهميعتقدون بأنّ هذا أليق و أنسب للحفاظ على وقارهم " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 144)

الشعر: يعترف الرحالة الفرنسيون للجزائريين بالقدرة على قول الشعر، يقول دوماس Genéral Daumas " إذا كان الشعر عندنا

موهبة مقصورة على عدد قليل ... فإنّها عند العرب متواجدة في كلّ مكان، تغذيها الفضاءات الرحبة و الشمس و الخطر و مفاتن الطبيعة و مشاهد الحياة اليومية " (فهيم، أدب الرحلات، 1989، صفحة 156)، فشعر المجتمع الصحراويّ يتنفس الدين والحبّ والحريّة، كما قال أحد الرحالة وغيرها من المظاهر التي تتبّعها الرحّالة و دوّنوها في كتبهم.

الخاتــمة:

الرحلة لازمت الانسان من القدم.

الصحراء فضاء جميل، مغري، فيه الكثير من الأسرار والعجائبية والخيرات.

توغل الرحالة بمختلف أجناسهم لأعماق الصحراء، وقد تباينت أغراضهم.

أرّخ أدب الرحلة لمختلف الأمم.

كان للرحّالة الفضل في اكتشاف مناطق جديدة في الصحراء.

عرف أدب الرحلة تطورا لكن تراجع في مراحل تالية.

أهداف الرحلة: إما المتعة أو الاكتشاف أو العلم أو الاستعمار، أو دينية.

عرف فن أدب الرحّالة الجزائريون لكن أغلب كتاباتهم ضاعت.

أدب الرحلة كان مع كتب التاريـخ والجغرافية ثم انفصل عنهما وأصبح فنا قائما بذاته.

صوّر أدب الرحلة شتى مجالات حياة العربي البدويّ الصحراويّ

دب الرحلة عرّف الانسان بحياة الآخر فصنع تميّزه وعرف ذاته

Sources And Références :

- Ibn Khaldun. (2009). the introduction. Ain Melilla - Algeria: Dar Al-Huda.
- Abu Al-Qasim Saadallah. (2005). Research and opinions in the history of Algeria. (Dar Al-Maktabah, editor) Beirut Lebanon, Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami.
- Ismail Al Arabi. (1986). The history of aviation and exploration on land and sea. Algeria: National Book Foundation.
- Instead of shelving. (2908, 2019). Medical literature and the world through the eyes of travelers. Retrieved from YouTube.
- Hussein Muhammad Fahim. (1989). Literature Literature. (Mentouri University, editor) Kuwait.
- The best good. (2017). Aviation literature between art and suspense (Ibn Battuta) - an example. Laghouat: Ammar Thlouji University.
- Abdullah Al-Rukbi. (2009). Algeria: Dar Al-Kitab Al-Arabi.
- Fouad Ephrem Al Bustani. (1989). Munjid Al-Talib (ed. ed.). (Dar Al-Mashreq, editor) Beirut - Lebanon.
- The concept of aviation literature. (1007, 2019). Retrieved from YouTube.